الإمام الرباني محمد مجذوب مدثر الحجاز

(١٣١٥هـ- ١٤٠٥هـ/١٨٩٨م-١٩٨٥م)

رحمه الله

نفحات من سيرته ومنهجه التربوي والتعليمي

دكتور/

أحمد محمد عبدالرحمن وراق

جامعة أم درمان الإسلامية

كلية أصول الدين

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

قال تعالى:

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ (١)

وقال تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (٢)

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢٣.

(٢) سورة آل عمران الآية ٧٩.

شكر وتقدير

الشكر والثناء موصول مني لكل من شارك في إخراج هذه الورقات، والجزاء مأمول من فضل الله تعالى ، وأخص من هؤلاء :

١ - من شاركوني في إثراء هذا العمل مما هو مسطور بالداخل :

* الأستاذ الدكتور/ زين العابدين العبد محمد النور.

* الدكتور/ بدوي عبدالصمد الطاهر.

* الدكتور/ محمد موسى حماد (رحمه الله تعالى).

٢ - فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمد غالب عبدالرحمن وراق - عميد كلية اللغة العربية الأسبق، جامعة أم درمان الإسلامية.

٣- فضيلة الدكتور / سليمان خاطر- الأستاذ بكلية اللغة العربية جامعة أم درمان الإسلامية.

٤- الابن الدكتور/ مصطفى أحمد محمد عبدالرحمن- المختص في الفقه المقارن .

٥- الدكتور/ عبدالعزيز الهندي عثمان الأستاذ بكلية اللغة العربية جامعة أم درمان الإسلامية.

تقديم

الحمد لله الولي الكريم، الرؤوف الرحيم، الذي تفضل على عباده فبعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

والصلاة والسلام على السيد السند العظيم، المبعوث رحمة للعالمين، الفاتح لما أغلق ،والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراط الله المستقيم، ورضي الله عن أهل بيته المكرمين، وصحابته المبجلين، الذين شادوا بناء الدين القويم، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم العرض على رب العالمين. وبعد، فهذه كلمات قليلات في حق أحد رجالنا العظماء، وكرامنا الكرماء، وأساتذتنا الأجلاء، الذين تركوا آثارا مباركة على جيلنا وبلدنا وأمتنا السودانية خاصة، على صعيد التربية والدعوة والبناء العلمي الراسخ، القائم على السند العلمي الصحيح، المتصل بالرحمة الربانية، المبرأ عن الدعاوي والأغراض الدنيوية، المحفوف بالدلائل الإيمانية، اللائحة عليها بوارق القبول، الداني القطوف، المبارك الثمرات، المتلقى بالاستحسان والقبول والرضا والتسليم من عموم الأمة التي لا تجتمع على ضلالة، فالناس من قديم؛ أكيس من أن يمدحوا أحداً من غير أن يجدوا آثار إحسان.

كان شيخنا وأستاذنا الحجاز رحمه الله تعالى يحض تلاميذه على قراءة التراجم ويقول: إنها "تسن الإنسان سناً" أي أنها شاحذة للهمم حين تعرض لحيوات العظماء وما فيها من معاني الخصوصية والاقتداء.

أدب التراجم في أمتنا قديم وراسخ، من لدن ابن سعد وطبقاته ومن قبله، وإلى ما بعد ذلك، تراجم تنوعت وتعددت، حتى لتكاد تشمل كل علماء الإسلام، بدءاً بتراجم الصحابة الأجلاء، ثم التابعين وأتباعهم، وتراجم القراء والمحدثين والمفسرين والنحاة والأدباء وأهل الطب والشعراء وغيرهم كثير، لكن حظنا في السودان من هذا الأدب مبخوس وقليل، من عهد ود ضيف الله إلى يومنا هذا، على كثرة ما سمعنا ورأينا من أهل السابقة والاقتداء، من أهل التربية خاصة وأهل العلم عامة، رجال جديرون أن نفاخر بهم الأمم من حولنا ونجعلهم نبراسا يضيئ لنا الطريق، أنشأوا دواوين الشعر الرصينة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بلغة العامة والخاصة، ترى فيها معاني التوحيد وفضائل الصحابة وضروبا من العبادات والعقائد والأخلاق، كما أنشأوا المساجد، وأوقدوا نار القرآن في كل فج عميق، نشروا فضائل الإسلام وسماحته، وخيره وبركته، أعطوا السودانيين وضعهم المميز بين سائر الأمم من حولنا، حقاً هم رجال عظماء، يجدر بنا أن ننقب عن جوانب العظمة والخير في حياتهم، فالترجمة حياة لمن نترجم لهم، كما هي حياة للأمم من بعدهم. جامعاتنا في

السودان ومراكز الأبحاث والعناوين الكثيرة المرفوعة هنا وهناك، لا ترى لها جهداً مذكوراً في هذا الاتجاه ، ليتها تنعم النظر وترجع البصر كرات وكرات في هذا التراث السوداني الثر، فهي واجدة فيه دون ريب ما هو جدير بالفخر والاعتزاز.

ليت جامعتنا التي تخرّج فيها عالمنا الجليل، تنشئ معهدا خاصا بالتراث السوداني في مجالاته المختلفة، تخرجه للناس في ثوب جديد، لترى الأجيال الخالفة فضل سلفهم الصالح، وكيف وضعوا اللبنات الأولى في هذه الأرض الطيبة . هذه الكلمات القليلة قطرة في هذا البحر، نرجو أن يكون لها ما بعدها، لم تعط لهذا العلم من أعلامنا حقه كاملاً وإنما هو جهد المقل. وكان الدافع الأكبر لتسطير هذه الكلمات ما رأيناه من ذهاب الكثيرين ممن كانوا حول الشيخ رحمه الله تعالى، وقد كانوا ملمين بكثير من درر الفوائد التي اكتسبوها من صحبة الشيخ المباركة، وذهاب العلم إنما هو بذهاب حملته كما هو مقرر ، ليت من تبقى منهم – وهم قليل- يستدرك ما فرط، أو شغل عنه، وقد بادر بعضهم كأخينا العلامة زين العابدين العبد – رعاه الله ومتع به- الذي أخرج أثرا مباركا في حياة شيخ الإسلام محمد البدوي رحمه الله، لم يسبق إليه فيما علمنا ، ليته أردفه بثانٍ عن حياة شيخنا الحجاز، فهو الأقرب دارا ورحما، وكذا بقية العقد النضيد من مشيختنا الذين يوشك أن يرخي عليهم النسيان سدوله ، هذه

الكلمات القليلة هي بعض مشاهداتي ومعايشتي القليلة للشيخ رحمه الله تعالى، رأيت واجبا علي أن أسطرها على علّاتها، شكرا مني وثناءً على الشيخ:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة * يدي ولساني والضمير المحجَّب

لم أجد في سردها مشقة، كانت الكلمات تتدفق عليّ ببركة صاحب الترجمة، ولكأنما عناني وعناه أبو الطيب وهو يمدح كافوراً:

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه * **وإن لم أشأ تملى علي فأكتب**

أو كما قال أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي[1] وهو يمدح شيخه محمد بن ناصر الدرعي بداليته المشهورة .

أولها : عرّج بمنعرج الهضاب الورّد * بين اللصاب وبين ذات الأرمد

ذكر أنه لم يكن له فضل في تلك الدرة الغراء وإنما هي ببركة الممدوح وهي من ٥٤٠ بيتاً . هذا والله المسؤول أن يتقبل هذه الكلمات وأن ينفع بها آمين .

وقد أضاف إلى هذا البحث الوجيز إضافات مهمة ثلاثة من أبرز تلاميذ الشيخ رحمه الله تعالى ومن فضلاء زملائنا وهم:

١- الأستاذ الدكتور العلامة زين العابدين العبد محمد النور المختص في الفقه والأصول وبخاصة الفقه المالكي نفع الله به وبارك في أيامه.

---

(١) اليوسي، فقيه مغربي ت سنة ١١٠٢هـ

٢- الدكتور بدوي عبدالصمد الطاهر العلامة الفقيه المجتهد القائم في إخراج الفقه المالكي في ثوب جديد وتحقيق دقيق بارك الله فيه ودخر الله له صالح عمله.

٣- فضيلة الدكتور محمد موسى حماد المختص في الحديث النبوي من جامعتي أم درمان الإسلامية والأزهر الشريف وهو من أخص تلاميذ الشيخ ومن أكثر الملازمين له، وقد كتب هذه الإضافة المفيدة وهو يعاني الضعف والعلة ثم قضى أجله في مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ووري ثرى البقيع المبارك رحمه الله تعالى وأحسن لقاءه وبارك في ذويه. وهي إضافات مهمة أثرت هذا العمل الوجيز، بارك الله فيهم جميعاً وأجزل ثوابهم، آمين.

أحمد وراق

أم درمان – السودان –

المحرم الحرام ١٤٤٣هـ/ أغسطس ٢٠٢١م

ترجمة وجيزة لفضيلة الشيخ الإمام مجذوب مدثر الحجاز

مولده ونسبه وجهوده العلمية:

مولده: ولد الشيخ المجذوب بأم درمان الشهيرة في كرري، واسمه محمد مجذوب إلا أنه اشتهر باسم المجذوب، والده الشيخ مدثر إبراهيم الحجاز كان من أعلام الدولة المهدية والمسؤول عن خاتم الخليفة عبدالله الذي يوقع به على ما يصدره من منشورات.

ينتمي أجداده إلى قبيلة الكمالاب، وموطنهم بربر بشمال السودان وهم معروفون بالعلم والتقوى. نشأ الشيخ في مدينة بربر، بلد آبائه وأجداده، في بيت علمي كبير. كان لأجداده مؤلفات علمية مخطوطة في مجالات شتى، ولنشأته في هذا البيت العلمي الكبير الأثر الواضح في تكوين شخصيته العلمية الفذة، وقد عاصر في حياته فترة من عهد الحكم الإنجليزي المصري. كذلك عاصر فترة الاستقلال والحكومات الوطنية المتعاقبة وكان طوال هذه الفترة من عمره مساهما في تنمية البلاد العلمية ، حيث شارك بفاعلية في تعليم أجيال من أبناء الوطن العلم النافع المبارك.

تعلمه:

أخذ الشيخ المجذوب أول ما أخذ من العلم على والده الشيخ مدثر إبراهيم الحجاز بعد أن حفظ القرآن الكريم في موطنه بربر، وهو في الحادية عشرة من عمره، ثم تلقى الفقه الشافعي والمالكي على نفر من علماء بربر، منهم الشيخ أحمد حميدة

والشيخ ود السيَّد، ثم انتقل رحمه الله إلى مدينة أم درمان، وألحقه الشيخ أبوالقاسم هاشم شيخ المعهد العلمي آنئذ مباشرة بالسنة الرابعة حسب نظام المعهد، الذي تصل فيه سنوات الدراسة إلى اثنتي عشرة سنة.

كان الشيخ مجذوب طالبا مبرزا من أول عهده بالمعهد إلى أن تخرج فيه عام ١٩٢٨م، يأتي ترتيبه أول دفعته، منذ التحاقه بالمعهد وإلى تخرجه في التاريخ المشار إليه وشمل تخصصه ونبوغه سائر فروع الفقه الإسلامي، واللغة العربية، والعقيدة، والسنة النبوية وغيرها من علوم المقاصد والوسائل.

جهوده العلمية:

عمل الشيخ المجذوب فور تخرجه أستاذا بالمعهد، ثم أستاذا بكلية الدراسات الإسلامية والعربية ، ثم عميدا لكلية الشريعة، ونائبا لمدير جامعة أم درمان الإسلامية، وله دور بارز في تحويل معهد أم درمان العلمي لجامعة أم درمان الإسلامية أثناء توليه لمشيخة المعهد، في الفترة من ١٩٦٣/ ١٩٦٥م ويعد آخر شيخ تولى مشيخة المعهد إذ تحول المعهد بعد ذلك إلى جامعة أم درمان الإسلامية، وقد استطاع في عهده أن يجتذب أعدادا من غير السودانيين للمعهد العلمي للدراسة فيه، وبذلك صار المعهد قبلة لطلاب الدول الإفريقية والآسيوية وغيرها من البلاد العربية، وقد بلغت جملة الطلاب من غير السودانيين الذين تلقوا العلم في عهده في العام الدراسي ٦٣/ ١٩٦٤م

ستة وسبعين طالبا من يوغندا ونيجيريا والصومال وحضرموت وأثيوبيا وتشاد ومصر والسنغال وأرتريا، وأما تلاميذه من السودانيين، فهم كثر لا يحصيهم العد، وهم تلاميذ حلقاته العلمية المتعددة، منهم من المعهد العلمي: الشيخ الحاج محمد الجعلي شيخ الطريقة القادرية، ومحمد الحسن الإدريسي شيخ الطريقة الإدريسية، والشيخ دفع الله الصائم شيخ الطريقة القادرية، والشيخ صديق عبدالحي مفتي الجمهورية الأسبق، والشيخ مصطفى محمد علي مفتي الجمهورية السابق، والدكتور بابكر البدوي دشين عميد كلية اللغة العربية السابق، وغيرهم من الأعلام يعسر حصرهم من أساتذة الجامعات، ورجال الهيئة القضائية السودانية، وبعض من أعلام التربية والأدب والسياسة وغيرهم.

نشاطاته العلمية وأعماله الأخرى:

كان الشيخ مجذوب محبوبا من جميع من حوله من تلاميذه وسائر أتباع الطريقة التجانية، من داخل السودان وخارجه، حيث تم اختياره أستاذا للطريقة وشيخا لها، وكان للشيخ مزايا في كل نواحي حياته العامرة بالزهد، يقسم وقته بعد حضوره من الجامعة بين الصلاة في المسجد، وفتح داره للطلاب السالكين للطريقة، وفي القراءة بمكتبته العامرة، وفي المساء يقيم حلقات الدرس بالمسجد، وأثناء الليل كان مكثرا من الذكر، ومؤانسة طلاب العلم بمنزله. كما كانت له نشاطات واسعة في

المجتمع بحكم ورعه وعلمه وزهده. وله مجموعة من المنشورات، أهمها منشورٌ موجه للدكتور مبارك الفاضل شداد، رئيس الجمعية التأسيسية صدر في ذي الحجة ١٣٨٦هـ الموافق ١٩٦٧م يطالب فيه بتحكيم شرع الله في البلاد والعباد، وله رسائل فقهية متعددة في مناسك الحج وتحديد الميقات المكاني لأهل السودان، والرد على بعض المتهجمين على العقيدة الأشعرية، أما مكتبته فتضم ألوفًا من المجلدات تشمل مناهل الثقافة الإسلامية، وطائفة واسعة من المعارف الإنسانية، وكان يوجه طلابه للاهتمام باقتناء الكتب لتكون لكل واحد منهم مكتبته الخاصة به، ويقول حكمته المشهورة "المكتبة تربى كالطفل إلى أن تكبر وتنمو" وهي مكتبة فريدة في نوعها، حوت أمهات الكتب التي وقفها الله تعالى، حتى يتمكن طلاب العلم والمعرفة من الاستفادة منها. وتعد من أكبر مصادر العلم في بلدنا، ولمكتبة الشيخ فرع آخر بمسجده في بربر الذي بناه على نفقته الخاصة، تقام فيه الأذكار ودروس العلم والجمعة والجماعة[1]. أما منهج الشيخ في التصوف فيقوم على المزج بين العلم والعبادة، والدأب عليهما الليل والنهار بعيدا عن البدع والتجاوزات التي خالطت التصوف في كثير من الأوقات والأماكن. وأما تلاميذ الشيخ الذين حرص على تربيتهم التربية

(١) راجع هذه الترجمة في توثيق حياة علماء الجامعة الإسلامية تحت عنوان (أعلام وأيام) برعاية الأستاذ الدكتور علي أحمد محمد بابكر، مدير جامعة أم درمان الإسلامية آنذاك.

الكاملة المستنيرة، فهم الدليل الأكبر على إخلاصه وجهده، وهم الأثر الباقي من بعده، منهم أعلام متميزون أشرنا إلى بعضهم في غير هذا الموضع يسيرون على منهجه عقيدة وشريعة وحقيقة ، وهذا المنهج هو الذي أعطى الدين الإسلامي في السودان سماحته ورحابته وأعطى السودانيين تميزهم بين الأمم خلقا وسلوكا، قل نظيرهما في الأمم من حولنا، تلك الأمم التي شقيت بالغلو والتطرف والجمود والجفاء والغلظة والبعد عن مقاصد الدين الحنيف، وغني عن الذكر أن التلاميذ يعتبرون الوسيلة الكبرى لنشر العلم وإحيائه وهم السر الأعظم في جهد العلماء وإخلاصهم.

ومن طريف ما يذكر في هذا الخصوص ما رواه الأستاذ الدكتور يوسف الخليفة أبوبكر رحمه الله ، وكان لصيقا بعلماء الجامعة آنئذ، أن الأمر اقتضى النظر في ترقية طائفة من الأساتذة الكبار من علماء المعهد، ولم تكن معهم سوى شهادة العالمية، كما لم تكن لهم عناية تذكر بالأبحاث والتأليف، وإنما جل جهدهم كان منصباً في التدريس، سواء في الجامعة أم حلقات العلم في دورهم ومساجدهم، مع اعتراف الجميع لهم بالفضل والسابقة والحذق في فنون متعددة من العلم، لا كما شاع مؤخرا من التخصص الدقيق الذي قتل العلم وذهب بكثير من ثمراته، قال فضيلة الدكتور رحمه الله تعالى: وكان ممن حضر هذا المسعى في ترقية درجات المشايخ والأساتذة

فضيلة العلامة عبدالحليم محمود رحمه الله تعالى، المنتدب من الأزهر للجامعة آنئذ، وشيخ الأزهر لاحقًا فكان أن انبرى لهذا الموقف بالتقرير أن هؤلاء الأساتذة جديرون بالترقية لا بسبب أبحاثهم القليلة، أو مؤلفاتهم، وإنما بسبب أكبر هو تلاميذهم الكثر وحلقات علمهم التي لا تفتر الليل والنهار !! يالها من حجة بالغة، وإنصاف جميل، ولله در أبي الطيب إذ يقول:

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة * بين الأنام ولو كانوا ذوي رحم

وعلى هذا تمت ترقية هؤلاء المشايخ والعلماء الكرام، وهكذا يجب أن تأخذ الجامعات بهذا النهج، ولا تعول كثيرا على النهج الحديث الذي ملأ الدنيا ضجيجا بالدرجات العلمية الضخمة، ثم لا شيء من ورائها في أغلب الأحيان.

ختام الحياة الدنيا:

في يوم الجمعة السابع من ذي الحجة ١٤٠٥هـ الموافق الثالث والعشرين من أغسطس ١٩٨٥م توفي الشيخ الإمام في أم درمان، موطن شبابه وكهولته وشيخوخته وقد جاوز الثمانين من عمره الحافل بالأعمال، لم يترك المسبحة أبدا، وكذا الدرس والكتاب، كانت حلقته عامرة قبل أسبوع واحد من وفاته ولعل هذا من بشريات الختام التي تدل على الإخلاص للعلم والدعوة قل نظيره. كان يوم وفاته يومًا مشهوداً في عاصمة البلاد الوطنية التي لم نرها تشهد حشدا من العلماء وطلاب العلم وأخيار

الناس كالذي رأيناه ذلك اليوم، لم يكن مسجده العامر ليتسع لآلاف المصلين عليه يومئذ، فنقل نعشه إلى الميدان الواقع في جنوب منزل الزعيم الأزهري، ثم بعد الصلاة عليه تواصلت أرتال الناس وصفوفهم من ذلك المكان وحتى مسجده المبارك بأبي روف، حيث دفن إلى جوار مسجده الذي قل ما كان يفارقه إلا لدرس الجامعة أو نحو ذلك، وحين دفن يومئذ، دفن معه علم غزير وفضل كثير، ذكرت معه مقولة ابن عباس رضي الله عنهما عندما دفنوا جثمان زيد بن ثابت الأنصاري كاتب الوحي ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، صاحب المناقب المشهورة. جلس الناس إلى ابن عباس رضي الله عنهما يومئذ، فقال: دفن اليوم علم كثير[1].

هذا وقد تبارى الخطباء يومئذٍ في مراثيهم المختلفة والمؤثرة، كان أبرزهم فضيلة العلامة محمد علي الطريفي (رحمه الله تعالى)، من أبرز تلاميذ الشيخ، كان يردد بين ثنايا خطبته المؤثرة جملة : أيا شيخنا، أيا شيخنا، أيا شيخنا، ويتخلل كلامه الحزين المؤثر يومئذٍ بعض عيون المراثي، لازلت أذكر منها بيتين اثنين لليلى بنت طريف ترثي أخاها الوليد بن طريف :

أيا شجر الخابور مالك مورقـًا * كأنك لم تحزن على بن طريف

فتىً لا ينال العز إلّا من التقى * ولا المال إلّا من قنـًا وسيوف

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات/ النووي ص ٢١٠.

كان رحمه الله سائراً على نهج الشيخ حتى توفاه الله ، وقد نزل في قبره ابنه الأكبر مدثر محمد مجذوب والسيد محمد الحسن الإدريسي وهم من كبار تلاميذ الشيخ وصلى عليه يومئذ مصطفى السيد محمد الحفيد (حفيد السيد المختار الشنقيطي) وهو من أخص خواص الشيخ – رحمهم الله جميعاً. وجعل الخير والبركة في ذريته وتلاميذه من بعده ولنعم المسؤول.

الشيخ الإمام مجذوب مدثر الحجاز
وطريقته في التربية والتعليم

فضيلة الشيخ الحجاز رحمه الله معلم بالفطرة، هيأه الله عز وجل وصنعه على عينه ليكون معلماً ومرشداً ومربياً، يعلم ذلك من وقف على حياة الشيخ منذ نشأته وإلى أن توفاه الله عز وجل، بعد عمر حافل بجلائل الأعمال. انتهاج المشايخ رحمهم الله لطرائق في التعليم يرتضونها تتناسب وتجاربهم ورؤيتهم للأمور، أمر شائع حتى قيل (لكل شيخ طريقته) ومن هؤلاء المتفردين بنهج علمي مميز في التعليم والتربية فضيلة الإمام العلامة القدوة الشيخ محمد مجذوب مدثر الحجاز عليه الرحمة والرضوان، وغني عن البيان أن هذه المناهج لا يلزم أن تلتزم التزاماً حرفياً في كل آن وحين، فلكل مقام مقال، لكنها دون ريب مثقلة بالفوائد لمن يروم الاستفادة منها. وأنا هنا أسوق طائفة من معالم هذا المنهج التعليمي الثر، كما رأيته عند الشيخ رحمه الله تعالى ورآه غيري كذلك، أقول هي معالم ونماذج ليس غير، لا يراد منها الإحاطة بمنهج الشيخ الذي امتدت حياته وآثاره المباركة بحيث يعسر حصرها في وريقات معدودات كالذي نفعله الآن، فمن ذلك:

﴿ ١ ﴾ الجدل بقدر البيان:

معلوم أن المراء لا يأتي بخير، وهو الجدل الذي تجاوز حد البيان ودخل إلى دائرة اللجاج والهذيان، الجدل المفيد منهج وأدب قرآني مبين، كما هو منهج وأدب في السنة الغراء، وقد نقل القرآن الكريم مجادلة النبي صل الله عليه وسلم لأهل الكتاب في عبارات نيرة وقوية ومفحمة ، بل سمى سورة كاملة من سوره المائة والأربعة عشرة باسم المجادلة (بكسر الدال وفتحها)، وجادل النبي صلى الله عليه وسلم قريشا، ونصارى نجران ، في سورة آل عمران ،ثم انتهى بدعوتهم للمباهلة تقصيرا لطِول القول معهم، فلما أفحموا في الجدال والمباهلة على سواء ارتضوا الجزية صاغرين، الشيخ الإمام رحمه الله كان على ذلك المنهج، ويؤثر عنه كلام مباشر في ذلك الخصوص، في ثنايا ترجمته الوجيزة ضمن كبار مشايخ الطريق الذي خطه المرحوم الفاتح النور ، وخلاصته أن مجادلة المخالفين في العقائد المجافية للجماعة جهد ضائع ، وسعي عقيم لا ثمرة له، وما يلزم المرء حينئذ هو البيان المبين والقول البليغ إقامة للحجة وقطعا للمعذرة، وعلى هذا كتب الشيخ الإمام كتابه الموجز المسمى بأفعال العباد، عندما رأى بعض مبعوثي الأزهر للمعهد العلمي بأم درمان آنذاك يقرر بعض المسائل على نهج المعتزلة ومقولاتهم، ففي ذلك الكتاب أبان الشيخ رحمه الله منهج أهل السنة

بأجلى بيان ثم اكتفى بذلك كما هو واضح في مقدمة الكتاب[1] هذا المنهج في الجدل والمستمد من القرآن الكريم والسنة الغراء كان راسخا ومرعيا عند سلف الأمة وعقلائها من لدن الإمام الغزالي رحمه الله وقبله وبعده ،فالغزالي الذي خاض غمار الجدل مع طوائف عصره من باطنية وفلاسفة وغيرهم انتهى إلى القول بأن (العقائد هبات وليست روايات) بمعنى أنها لا تحتمل الجدل العقيم وإنما هي أمور تغرس في القلوب مبكرا، تتشربها وتصطبغ بها، وتستقر في أعماقها ثم لا ينزعها منها إلا مقلب القلوب على حد قول القائل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى * فصادف قلبا خاليا فتمكنا !!

الواقع الماثل يشهد لهذا المنهج القويم في عقم الجدال المنتهي إلى المراء، فكثيرا ما نرى المعارك تحتدم في قضية ما ثم لا ينجلي غبارها إلا عن أناس متمترسين عند قناعاتهم، ترى ذلك جليا في قضايا الفكر والأدب والسياسة، فضلا عن العقائد التي انعقدت في القلوب مبكرا.

---

(١) وقد علق على هذا الكتاب فضيلة أستاذنا العلامة محمد يوسف الشيخ المختص في العقيدة والمنتدب حينذاك من جامعة الأزهر بجامعة أم درمان وقد أبدى استحسانه لما ورد في الكتاب رحمهما الله تعالى وأجزل ثوابهما.

﴿ ٢ ﴾ وضوح العبارة وفصاحة الكلام:

اشتهر في بيئات كثيرة، ومنها بيئتنا السودانية ، سرعة الكلام، فالمخارج تتداخل، والكلمات يركب بعضها ظهر بعض، وقلما ترى الترسل والتؤدة في الكلام والفصل بين جمله ومفرداته في قاعات الدرس، ومنابر البيان، ولربما استمعت لبعضهم الوقت الطويل فأرهقت سمعك وعصبك لتلتقط جملة أو جملتين فلا تظفر بشيء!! فلا تملك غير مجاراة محدثك إيهاما بالاستفادة ودفعا للحرج، ولقد رأيت بعضهم يجتهد وسعه للوصول إلى سدة التدريس ومهنة التعليم، كانت الكلمات تتدفق من فيه كمطر منهمر ثم لا تفهم منه كثيرا ولا قليلا، أقول له: عفا الله عمن يعينك في الوصول لمبتغاك ، وأعان الله من سيجلسون إلى درسك!! ولكم شكا لي طلاب كثر أنهم لا يفهمون شيئا مما يقوله أكثر الأساتذة ، فأقول لماذا ؟ فيقال: لسرعة الكلام وتداخل المخارج وربما لأمور أخر !! كان الشيخ الإمام رحمه الله واضح البيان، ناصع الكلمات، كان كلامه كما في حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن كلام نبينا صلى الله عليه وسلم، تقول رضي الله عنها: "كان كلامه فصلاً" لو شاء العادُّ أن يعدّه لعدّه وتقول رضي الله عنها: "لم يكن يسرد كسردكم هذا ..." كان كلامه رحمه الله في الدرس مريحاً للأذن، واضح النبرات ينساب من الأذن إلى الفؤاد في يسر كانسياب